الفصل الثامن

أهل الذمة في مصر الإسلامية

موقف الأقباط من الفتح الإسلامي:

كان العرب يترددون على مصر كثيرًا من قبل الإسلام، فقد وفد إلى صعيد مصر منذ أقدم العصور كثير من التجار العرب، وذلك عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية، حتى أن المؤرخ والجغرافي اليوناني سترابون المتوفي نحو سنة ٢٥م قال عن مدينة فقط في الصعيد أنها مدينة نصف عربية.

فتح عمرو بن العاص العريش بدون مقاومة، ثم استمر زحفه دون اشتباك مع جند الروم حتى وصل إلى الفرما (أو بلوزيم)، وكانت وقتئذ مفتاح مصر، وبها كثير من الحصون، فحاصرها عمرو شهرًا حتى فتحها سنة ١٩هـ. ثم زحف العرب إلى بلبيس ففتحوها بعد شهر أيضًا. ويذكر المؤرخون أن أرمانوسة بنت المقوقس حاكم مصر الروماني كانت تقيم بها، فأعادها عمر إلى أبيها بعد أن أكرمها مما أدى إلى إعجاب القبط به. وتقدم عمرو إلى أم دنين[٢٢٣]، حيث

---

[٢٢٣] تبقى للروم أرضهم وأموالهم.

دارت معركة عنيفة مع الروم، ثم حاصر حصن نابليون، فطلب المقوقس الصلح، وعقد الطرفان صلحاً أهم شروطه:

١. يدفع كل قبطي في مصر للمسلمين دينارين مع استثناء الشيوخ والنساء والصبيان.

٢. للمسلمين حق الضيافة على الروم، فمن نزل عليه ضيف أو أكثر من المسلمين كان عليه ضيافته ثلاثة أيام.

٣. تبقى للروم أرضهم وأموالهم.

وافق الخليفة عمر بن الخطاب على هذه الشروط، أما الإمبراطور فإنه رفضها، بل بعث يوبخ المقوقس ويلومه، ويأمره بمعاودة قتال العرب. ولكن العرب تمكنوا من اقتحام حصن بابليون،وبدأ عمرو زحفه نحو الإسكندرية عاصمة مصر حينئذ، فحاصرها ١٤ شهراً، وفتحها. وكانت وفاة هرقل خلال الحصار مما أدخل اليأس في قلوب الروم، كما أن أهل الإسكندرية كانوا حانقين على الروم لما عانوه من اضطهاد ديني، كما أن المقوقس أقنعهم أن الحكم أكثر عدلاً من حكم الرومان.

عقد المقوقس مع عمرو معاهدة صلح أهم شروطها:

١. يدفع كل قبطي جزية قدرها دينارين سنوياً مع إعفاء الشيوخ والنساء والأطفال.

٢. عقد الهدنة ١١ شهراً.

٣. أن يكف العرب والروم عن القتال.

٤. أن يحترم العرب الكنائس والطقوس المسيحية.

٥. بقاء اليهود في الإسكندرية.

٦. ألا يحاول الروم استرداد مصر.

٧. أن يحتفظ المسلمون برهائن من الروم ١٥٠ جندياً و٥٠ ملكياً.

٨. أن يرحل الجند الروم عن الإسكندرية بأموالهم وممتلكاتهم.

كان هذا الصلح بمثابة اعتراف بأن مصر أصبحت ولاية عربية إسلامية تتبع الدولة العربية الإسلامية، وأصبحت مصر تتجه نحو المدينة بالحجاز، بعد أن كانت تتجه نحو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية.

كان الروم من سكان مصر أكثر الطبقات مقاومة للفتح العربي، وهذا طبيعي فقد اعتبر الروم مصر ضيعة لهم يستغلونها أسوأ استغلال. أما اليهود فقد وقفوا على الحياد من صراع الروم والعرب، فقد كان اليهود يمارسون نشاطاً اقتصادياً واسع النطاق، وكانوا يحرصون على مصالحهم الاقتصادية فلم يزجوا بأنفسهم في صراع لا يعود عليهم إلا بالضرر، وكان سيان عندهم من ينتصر

سواء العرب أو الروم. وكافأ عمرو بن العاص اليهود على حيادهم فنص في معاهدة الصلح على السماح لهم بالبقاء في الإسكندرية.

أما الأقباط المصريون فقد رحبوا بالفتح العربي فقد رأوا فيه خلاصاً من اضطهاد الروم البيزنطيين لهم. وكانوا يسمعون الكثير عن تسامح العرب وحسن معاملتهم للمسيحيين في الشام. وذكر المؤرخ ابن عبد الحكم صورًا كثيرة لترحيب الأقباط العرب، فمما ذكره هذا المؤرخ: "وكان بالإسكندرية عند الفتح أسقف للقبط يقال له بنيامين، فلما بلغه قدومه – أي عمرو – إلى مصر، كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة، وأن ملكهم قد أنقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو، فيقال أن القبط الذين بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً". وذكر ابن عبد الحكم في مكان آخر من كتابه: "أن عمرو بن العاص قد خرج بالمسلمين حتى أمكنهم الخروج من حصن بابليون ومعه جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا لهم الجسور والأسواق، قاصدين الإسكندرية"[٢٢٤].

لكن مساعدة الأقباط للجيش العربي لم تكن العامل الأساسي الذي سهل انتصارهم على الروم، فإن هذا النصر يرجع إلى عاملين أساسيين، **أحدهما** معنوي ويتعلق بتأثير الإسلام في نفوس القبائل العربية الإسلامية. والعامل **الثاني** مادي يتعلق بظروف مصر الداخلية، فقد كانت تعاني من اضطهاد البيزنطيين، إلى جانب ظروف الدولة البيزنطية، فلم يكن بين شعوبها ارتباط أو تآلف. وكان

---

[٢٢٤] فتوح مصر، ص٥٣– ٥٤.

العرب يجيدون بعض الفنون الحربية التي لا يجيدها خصومهم مثل فن الرماية، وكان معظم جند العرب من الفرسان، بينما معظم جند الروم مشاة ويستعملون العدد الثقيلة التي تعوق حركتهم. وامتاز العرب عن الروم بالصبر على مشاق القتال والاكتفاء بقليل من الزاد، إلى جانب الحماسة الدينية[٢٢٥].

تسامح العرب مع أقباط مصر:

لا شك أن موقف الأقباط السلمي جعل الفاتحين العرب يعاملونهم معاملة طيبة، فقد خيروهم بين الإسلام أو البقاء على دينهم مقابل دفع جزية. فإذا أسلموا صار لهم حقوق المسلمين وواجباتهم، أما إذا تمسكوا بدينهم صارت لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية مقابل دفع دينارين سنوياً، وأعفي من الجزية النساء والأطفال والشيوخ، وكتب عمرو للأقباط عهداً بحماية كنيستهم، كتب أمانا للبطريق بنيامين وأعاده إلى وظيفته بعد أن نفاه الروم ١٣ سنة، واستقبله عمرو عند عودته إلى الإسكندرية استقبالاً حافلاً.

يعترف المؤرخ (توماس أرنولد) [٢٢٦] بحسن معاملة العرب للمسيحيين فيقول: يرجع النجاح الذي أحرزه الفاتحون العرب قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عرف به من الإدارة الظالمة ومما أضمروه من حقد

---

[٢٢٥] علي إبراهيم: مصر في العصور الوسطى، ص١٦.

[٢٢٦] الدعوة إلى الإسلام، ص٩٢.

مرير على علماء اللاهوت، فإن اليعاقبة الذين كانوا يكونون للسواد الأعظم من السكان المسيحيين عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكس التابعين للبلاط، الذين ألقوا بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم.

ترك العرب الأرض للمصريين، وتعهدوا بحمايتهم وتأمينهم، وأعاد العرب إلى مصر الأمن والهدوء والاستقرار، و هتموا بمشاريع الري، وتنظيم القضاء والضرائب، وبناء مقاييس النيل مما أدى إلى انتشار الرخاء.

تحدث المؤرخ (جوستاف لوبون) [٢٢٧] عن سياسة عمرو بن العاص بعد فتح مصر فقال: ودل ما قام به عمرو بن العاص من تنظيم مصر على عظيم حكمته، وعامل عمرو الفلاحين بما لم يعرفوه من العدل والإنصاف منذ زمن طويل، وأنشأ للمسلمين وحدهم محاكم منظمة دائمة ومحاكم استئناف، فإذا كان أحد الخصوم مصريًا حق للسلطات القبطية أن تتدخل، واحترام عمرو نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم، وسار عمرو في مصر على غرار عمر بن الخطاب في القدس، فشمل الديانة النصرانية بحمايته، وسمح للأقباط بأن يستمروا على اختيار بطرك لهم كما في الماضي، ومن تسامحه إذ أذن للنصارى في إنشاء الكنائس في الفسطاط، المدينة الإسلامية التي أسسها.

****

[٢٢٧] حضارة العرب، ص٢١٥.

أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية:

يتهم بعض المستشرقين الأوربيين الذين يحاولون دائمًا أن يكيدا للعرب عمرو بن العاص بأنه أحرق بأمر الخليفة عمر بن الخطاب مكتبة مدينة الإسكندرية التي كان قد أسسها بطليموس الأول والتي كان يستفيد منها كثير من العلماء والطلاب التي كانت تحتوي على آلاف الكتب النادرة وعللوا ذلك بأن هذه الكتب كانت تحوي من التعاليم المسيحية ما يخالف الإسلام، واستند هؤلاء المستشرقون في هذا الاتهام الباطل إلى ما قاله الرحالة عبد اللطيف البغدادي[٢٢٨] الذي زار مصر بين سنتي ٥٩٥ – ٥٩٨هـ وإلى ما جاء في كتاب أبي الفرج الملطي[٢٢٩]. فقد ذكر عبد اللطيف البغدادي أنه قد سمع بوجود مكتبة ضخمة في الإسكندرية قبل الفتح الإسلامي ولكنه لم يجد هذه المكتبة عند زيارته لها، ثم أتهم عمرو بن العاص بإحراقها.

ونحن نهدم هذا الاتهام الظالم الباطل بأدلة تاريخية، وأخرى منطقية، وأدلة قياسية. أما الأدلة التاريخية، فلم يذكر المؤرخون العرب المشهورون الذين نعتمد على رواياتهم في دراستنا للتاريخ الإسلامي شيئاً عن هذا الاتهام، مثل الطبري وابن الأثير والبلاذري وابن عبد الحكم وغيرهم. كما لم تذكره كتب مؤرخي الشيعة الذين نعلم كراهيتهم لعمرو بن العاص ولو حدث الحريق على يد عمرو

---

[٢٢٨] الإفادة والاعتبار ص٢٨.

[٢٢٩] وهو عز بغورس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري وكنساته (مختصر الدول).

لما سكتت هذه الكتب عن ذكره. وهذا كله يجعلنا نشك تماماً في صحة الاتهام.

أما الأدلة المنطقية، فقد ذكر أبو الفرج الملطي أن كتب المكتبة اتخذت وقودًا لأربعة آلاف حمام لمدة ستة شهور، وهذا لا يخضع لأي منطق ولا يقبله عقل، فليس من المعقول أن يكون في الإسكندرية مثل هذا العدد من الحمامات، ولم يكن بالمكتبة من الكتب ما يستمر وقودا لهذه الحمامات ستة شهور. ولو كان عمرو بن العاص أراد فعلا تدمير المكتبة لاستغرق هذا منه ساعات قليلة.

أما الأدلة القياسية، فنحن نعرف عن العرب اهتمامهم بالعلم والكتب، وتجلى هذا في فتوحاتهم في بلاد الشام، فقد احترموا جميع الكتب الدينية المسيحية واليهودية، فضلا عن دور العبادة. فما الذي يجعل العرب يحيدون عن سياستهم في الشام أو العراق؟!.

والحقيقة أن مكتبة الإسكندرية كانت قد تضاءلت قبل الفتح نتيجة نقل معظم كتبها إلى روما، إلى جانب تكرار حوادث السلب والنهب وعدم اهتمام الولاة البيزنطيين. وقد يكون قد اختلط على الكُتَّاب فظنوا أن الحريق الذي أصاب المكتبة سنة ٤٨ ق.م. عند قدوم يوليوس قيصر إلى الإسكندرية لمعاضدة كليوباترة ضد أخيها فظنوا أن الحريق قد حدث زمن عمرو. كما أن المكتبة تعرضت للحريق مرة ثانية قبل الفتح الإسلامي حينما تتبع المسيحيون في الإسكندرية الوثنيين فلجأوا إلى معبد للأوثان مجاور للمكتبة، فأحرق المسيحيون هذا المعبد وامتدت النيران إلى جزء من المكتبة.

انتشار الإسلام في مصر:

لا شك في أن نشر الإسلام كان الهدف الرئيسي من الفتوحات العربية سواء في العراق أو الشام أو مصر. وحمل الفاتحون العرب عقيدتهم لينشروها حيث استقروا في الأمصار المفتوحة. وكان العرب يخيرون الأهالي بين الإسلام أو دفع الجزية أو القتال، واتبعوا دائمًا سياسة (لا إكراه في الدين). وقد وجد الإسلام في مصر أرضًا خصبة، وكان هناك صلة رحم ماسة بين العرب والأقباط، فقد تزوج الرسول عليه الصلاة والسلام من مارية القبطية المصرية، كما أوصى الرسول بالقبط خيرًا.

وكان كثير من المصريين قد ملوا طول الصراع المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك، وبين اليعاقبة والملكانيين، وأرادوا الخلاص من هذا النزاع المستمر، ورأوا في اعتناق دين العرب ذلك الخلاص[٢٣٠] كما اعتنق بعض المصريين الإسلام ليصبح لهم ما للعرب وعليهم ما على العرب من واجبات. وكان بعض المصريين يفضلون الإسلام على دفع الجزية، فيقول المؤرخ (بتلر) [٢٣١]: رأى المصريون أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم، ويجعلهم إخوانهم في كل شيء، يسهم لهم في الفيء ولا يفرض عليهم الجزية. فكان في ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام، ولاسيما قد

---

[٢٣٠] بتلر: فتح العرب لمصر، ص٣٨٥.

[٢٣١] فتح العرب لمصر ص٢٤٣.

طحن المقوقس عقيدتهم طحنا وحطم يقينهم باضطهاده. بل اعتنق بعض الروم الذين كانوا يقيمون في مصر الإسلام، فقد أرادوا الاستمرار في البقاء في مصر بعد الفتح، وأرادت هذه الطبقة أن تلائم بين واقعها وبين الواقع العربي الإسلامي، وكان بعض روم الشام قد اعتنقوا الإسلام وصحبوا عمرو بن العاص إلى مصر لفتحها.

شمل انتشار الإسلام كل طبقات المجتمع الطبقي، ومنهم فريق من الرهبان، مثل يوحنا أحد رهبان دير سينا، ومن المكفرين العقلاء ومن الأشراف، ومن العامة. وكان انتشار الإسلام يتناسب مع انتشار القبائل المهاجرة، فكثرة الوافدين من العرب كانت تتيح ألوانا من الصلات، صلات التقارب أو صلات التراحم، وليس للإسلام من دعاة إلا أهله، وكثيرًا ما كانت تؤدي هذه الصلات إلى الإسلام.

وكان انتشار الإسلام في المدن قبل أن يكون في لقرى، وذلك يرجع إلى انتشار المسلمين في المدن المختلفة من ناحية، وإلى ما يكون من قدرة أهل المدن على الاستجابة للدعوات من ناحية أخرى، على حين يظل المجتمع الريفي منعزلاً بعض العزلة عن هذه التيارات التي تأخذ سبيلها إليه في بطء وحذر[٢٣٢] ويبدو أن لإسلام لم ينتشر في ريف مصر إلا في مطلع القرن الثاني حين هاجر إلى مصر، في ولاية عبيد الله بن الحبحاب، هذه الأسر القيسية التي

---

[٢٣٢] شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية، ص١٥٩.

سكنت وادي حوف الشرقي، فجاورت الريف المصري من هذا الجانب، وخالطته وحملت إليه الإسلام[٢٣٣].

إقبال أهل الذمة على تعلم اللغة العربية:

بعد مرحلة الاستقرار، بدأت مرحلة التعريب اللغوي. قبل الفتح العربي، كانت اللغة الرسمية في مصر اللغة اليونانية، فكانت لغة السياسة والإدارة ولغة الثقافة والعلم، وأصبحت لغة العبادة في الكنائس المصرية أما اللغة القبطية فقد كانت اللغة اليومية لعامة الشعب المصري من الأقباط.

لما أصبحت اللغة العربية هي لغة الطبقة الحاكمة بعد الفتح العربي، كان من المنطقي أن يقبل المصريون على تعملها. كما ساعد انتشار الإسلام على انتشار اللغة العربية، حتى يتيسر لمعتنقيه الصلاة وقراءة القرآن الكريم. ولكن رغم ذلك وجدت اللغة العربية عدة صعوبات، فليس بين اللغة العربية وكل من اللغة اليونانية واللغة القبطية صلة قرابة لغوية. ولذا ظل نطاق انتشار اللغة العربية محدوداً حتى عرَّب الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان دواوين مصر، فتضاءلت اللغة القبطية وعظم انتشار اللغة العربية، وأصبحت بمرور الوقت لغة المصريين في الدين والثقافة والإدارة، في العمل والبيت، وخلفت اللغة القبطية في جزر صغيرة منعزلة.

---

[٢٣٣] المقريزي: الخطط حـ٢، ص٢٦١.

أما التعريب الجنسي فقد كان محدوداً في أول الأمر، فلم يكن بين المصريين والعرب كثير من صلات التزاوج في القرن الأول الهجري، كما كانت سياسة عمر بن الخطاب (لا فيء ولا عبيد) عاملاً هامًا على قلة السبي والتزاوج. ثم وضح الاندماج والتزاوج والامتزاج في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة.

أهل الذمة المصريون في ظل الحكومة الإسلامية:

وضع عمرو سياسة أساسها كسب محبة الشعب المصري، والتآلف بين العرب الفاتحين والقبط المصريين، فقد بعث يستدعى بطريق الإسكندرية من الشام، وكان قد هرب إليها من اضطهاد الرومان حيث مكث ثلاث عشرة سنة. كما منح عمرو المصريين حرية ممارسة شعائرهم الدينية. وعاش المصريون طوال العصر العربي الإسلامي في أمان.

ترك الرومان البيزنطيون مصر وقد انتشرت بها الفوضى، وعمت الإدارة والمرافق العامة، فكان على عمرو بن العاص أن يعيد تنظيم الإدارة والحكومة في مصر مما يحقق الهدوء والاستقرار والمساواة للجميع على اختلاف أديانهم وأجناسهم، كما قام بكثير من المشروعات الإصلاحية ليعم الرخاء، ونظم الضرائب والخارج، وأمر الجند العرب بالانتشار في الريف المصري والاختلاط بالمصريين. وفي سنة ٢٣هـ أعاد عمرو حفر قناة نخاو التي كانت تصل بين النيل والبحر وسماها (خليج أمير المؤمنين)، وأنشأ عمرو

مقاييس النيل، فقد كان يدرك أن الزراعة مورد مصر الأول. وحرص عمرو على أن ينفق معظم إيرادات مصر في الإصلاحات.

كان المجتمع المصري زمن الفتح العربي يتألف من عدة عناصر مختلفة، من قبط وروم وعرب وأكراد وأحباش، وقد أصبح الرومان في مصر بعد الفتح الإسلامي أقلية ضئيلة، ولكنهم فضلوا الإقامة فيها في ظل التسامح الإسلامي على الرحيل إلى وطنهم.

حرص العرب الفاتحون منذ اللحظة الأولى على صبغ المجتمع بالصبغة العربية الإسلامية، تحقيقاً لوحدة التجانس بين الولايات في الدولة العربية فبدأ انتشار الإسلام والعروبة في المجتمع المصري، في تسامح وسلام. ولم يكن للعرب مبشرون أو دعاة تخصصوا في نشر الإسلام، كما كان الحال بالنسبة للمسيحيين، ولكن المصريين اعتنقوا الإسلام مختارين عن اقتناع حقيقي.

كان الأقباط يمثلون غالبية سكان مصر، وكان الولاة المسلمون يعاملونهم معاملة طيبة، لمساعدتهم الفاتحين العرب أو وقوفهم على الحياد، فأطلقوا لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية. وخير مثال لهؤلاء الولاة، مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤٧ – ٦٢هـ) وعبد العزيز بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ).

فيعتبر عصر عبد العزيز بن مروان من أزهى فترات العصر العربي في مصر، فقد عامل الأقباط المصريين بكل تسامح، واتخذ لإقامته دير القبط في مدينة طنوية على نهر النيل ومنح الرهبان عشرين ألف دينار، ولم يتخذ حلوان مقرًا له إلا بعد إصابته

بمرض الجذام، فأصبحت حلوان عاصمة مصر واهتم بتعميرها فأقام بها البساتين والمباني واهتم بالزراعة ومقاييس النيل[٢٣٤].

تولى الأقباط المناصب الكبرى ومعظم الوظائف الإدارية، ففي عصر عبد العزيز بن مروان كان هناك كاتبان أحدهما لإدارة مصر العليا أي الوجه القبلي، والأخر لإدارة مصر السفلى أي الوجه البحري. وكان معظم موظفي الإدارة المالية من الأقباط، كما تولى الأقباط مناصب ولاة الأقاليم. وكان الأقباط رغم بقائهم على دينهم حريصين على تعلم اللغة العربية، حتى يتفاهموا مع العرب الحاكمين، وحتى يحتفظوا بوظائفهم في الحكومة، وخاصة بعد تعريب الدواوين في عصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي حول ديوان مصر من اللغة القبطية إلى اللغة العربية، ولم يتعرض الأقباط لأي اضطهاد أو ضغط.

استقر العرب بعد الفتح في الفسطاط والإسكندرية والجيزة، وانصرفوا إلى السياسة والحرب والحكم، ولم يقبلوا على الزراعة وسائر المهن والحرف، وكان التزاوج بين العرب والمصريين في أول العصر العربي محدودًا، ولكن توالت هجرات عربية على مصر، وقدمت موجة عربية كبيرة في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥هـ)، وتخلى العرب في عهده عن سياسة عدم الامتزاج بالمصريين، وأقبلوا على احتراف الزراعة، وبدأ التزاوج يأخذ صورة واضحة، واستمر توافد القبائل العربية، وزاد اندماج العرب في المجتمع العربي في عصر الخليفة العباسي

---

[٢٣٤] السيوطي: حسن المحاضرة حـ٢، ص١٣٦.

المعتصم سنة ٢١٨هـ. فقد أمر المعتصم بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع أعطياتهم، ونتج عن هذا تقارب شديد بين العرب والمصريين، وأصبح العرب في مصر لا يتميزون عن أهل البلاد، وبعد أن كان العربي يحرص على إبراز صبغته العربية وانتسابه إلى قبيلته، فكان يحرص على تدوين أسماء القبائل على شواهد القبور، أصبح العرب في القرن الثالث الهجري يعون اسم البلدة أو الإقليم الذي ينتسب إليه بدلاً من القبيلة. ولذا نعتبر قرار المعتصم أنه أدى إلى امتزاج العرب المصريين وظهور عنصر جديد نتيجة امتزاج العنصرين السابقين، كما أدى إلى انتشار العروبة والإسلام على نطاق واسع.

وبدأ الأقباط المصريون أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يتخلون عن اللغة القبطية ، ويقبلون على التحدث باللغة العربية، وأصبح رجال الدين الأقباط في مصر يكتبون في القرن الرابع الهجري باللغة العربية ويتخاطبون بها مع أبناء الطائفة القبطية.

انتصر المسلمون للأقباط الأرثوذكس على أعدائهم في المذهب الديني وهم الملكانيون، فاسترد الأرثوذكس المصريون عددًا من الكنائس والأديرة التي كانت في يد الملكانيين، بل حولوا عددًا كبيراً في عهد الوالي مرة بن شريك إلى المذهب اليعقوبي. وسمح المسلمون للأقباط ببناء كنائس جديدة، والاحتفال بأعيادهم[٢٣٥]. وكان

[٢٣٥] المقريزي: الخطط حـ١، ص٢٦٤.

عيد وفاء النيل عيدًا عامًا يشترك فيه الولاة والمسلمون والأقباط على السواء.

قام الواليان العباسيان الليثي بن سعد وعبد الله بن لهيفة ببناء الكنائس وقالا: هو من عمارة البلاد. ويذكر المؤرخ (آدم متز) [٢٣٦] أن عامة الكنائس التي بمصر لم تبن إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين. ويقول المؤرخ (ترتون) [٢٣٧]: ساهم الأقباط في حياة المسلمين الاجتماعية وأخذوا منها بنصيب، فجرت عادة المسلمين في أسنا من صعيد مصر في أفراحهم وأعراسهم على دعوة النصارى الذين يغنون بالقبطية الصعيدية، ويمثلون أمام العروس في أسواق أسنا وشوارعها، ويقول أبو صالح الأرمني تعقيباً على ذلك أن هذا صار عندهم عُرفًا وعادة مستقرة، وكثيراً ما زار المسلمون الأديرة المصرية المنتشرة في المدن والقرى، وقدموا لها النذور.

احتفل الأقباط والعرب بكثير من الأعياد والمواسم، وكان للأقباط عند الفتح أربعة عشر عيدًا في السنة القبطية بمصر، وهو أول يوم من توت وفيه تشعل النيران وترش المياه[٢٣٨]. وسمح الولاة العرب للأقباط بجميع أعيادهم، وكان المسلمون يشتركون دائماً مع الأقباط في الابتهاج بهذه الأعياد. وكانت جميع طبقات المجتمع

---

[٢٣٦] الحضارة الإسلامية في القرن ٤هـ حـ١، ص٧٣.

[٢٣٧] أهل الذمة في الإسلام، ص١٥٩.

[٢٣٨] السعودي: مروج الذهب حـ٢، ص٣٦٥.

تحتفل بليلة الغطاس. فيجتمع فيها على شاطئ النيل آلاف المسيحيين والمسلمين مرتدين أفخر الثياب، ويقبلون على أشهر الأطعمة، ويغطس أعظمهم في نهر النيل، معتقدين أن في ذلك شفاء لهم من أمراضهم.

اهتم الولاة العرب بشئون الزراعة، الحرفة الأولى للأهالي المصريين، فاهتموا بحفر الترع وإنشاء الجسور على النيل، وبناء القناطر، واهتموا أيضًا بإنشاء مقاييس النيل لمعرفة منسوب الفضيان لتنظيم الري وضبط الضرائب. كما اهتم العرب بالصناعة، وكان معظم الصناع من المصريين، فقد انصرف العرب إلى السياسة والجيش والإدارة. وأدى تقدم الزراعة والصناعة إلى نشاط التجارة، واهتم الولاة العرب بإصلاح طرق التجارة والقوافل وإنشاء الآبار بها وتأمينها من اللصوص وقاموا بإنشاء المواني. واهتم العرب أيضاً بتنظيم الضرائب والإدارة المالية وكانت الإيرادات نوعين: ضرائب الأرض، والجزية. أما الجزية فقد فرضت على أهل الذمة من النصارى واليهود، وأعفي النساء والأطفال والشيوخ، فكان للذمي يدفع دينارين في السنة، أو ثمانية قروش ونصف في الشهر، وتتعهد الحكومة العربية بحماية أرواح أهل الذمة وممتلكاتهم وتعفيهم من الخدمة العسكرية.

لم يزد الخراج في السنة الأولى من ولاية عمرو بن العاص عن عشرة ملايين دينار، وفي السنة الثانية عن أثنى عشر مليون دينار، بينما كان في عهد المقوقس عشرين مليونًا. ونستطيع أن نستخلص من ذلك أن عمرو بن العاص راعى حالة الفيضان في

تقدير الضرائب، كما أنفق كثيراً من الإيرادات في سائر المشروعات الإصلاحية، كما ألغى عمرو كثيراً من الضرائب التي كان الرومان يفرضونها للتخفيف عن المصريين. وقد قل الخراج في مصر في العصرين الأموي والعباسي نتيجة دخول عدد كبير من أهل الذمة في الإسلام وإعفائهم من دفع الجزية. واحتفظ الولاة الأمويون والعباسيون بالنظام الإداري الذي وضعه عمر بن الخطاب.

أهل الذمة في العصرين الطولوني والأخشيدي:

شهدت مصر في عصر أحمد بن طولون فترة رخاء وازدهار، وضرب ابن طولون مثلا أعلى للحكم الصالح المستنير، فقد أهتم بشتى النواحي العمرانية، فقد عمل على أن يحقق لمصر استقلالاً ذاتيا عن الدولة العباسية.

صحب ظهور ابن طولون في مصر تطور هام في تاريخ الشعب المصري فقد بدأت الصبغة العربية الإسلامية تشكل المجتمع المصري وتطبعه بطابعها في العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية. وبدأت اللغة العربية تصبح لغة الحديث والعلم للغالبية العظمى من المصريين، وبدأ المسيحيون ينسون لغتهم الأصلية بالتدريج ويتعلمون اللغة العربية. وعمل ابن طولون جاهدًا على كسب ود المصريين، مسلمين أو ذميين وظهر في ثوب المدافع عن حقوقهم، فألغى الضرائب الظالمة، كما أقر الأمن، فاطمأن المصريون، وانخفضت الأسعار. واستخدم المصريون في الجيش والوظائف، وتزوج من مصرية، وبلغ من تعلق المصريين به أن أسفوا عليه كثيرًا يوم

وفاته، وبقيت ذكرى ابن طولون ماثلة في أذهان المصريون جيلاً بعد جيل[٢٣٩].

يؤكد ساويرس مؤرخ البطاركة أن الحكومة الإسلامية في مصر لم تتدخل في الشعائر الدينية عند أهل الذمة، بل كان الأمراء يحضرون مواكبهم وأعيادهم، وكان أبناء مصر من المسلمين يشاركونهم أعيادهم كما يبين ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيرًا من الوظائف في العصر الإسلامي، وخاصة الوظائف المالية. ويذكر ساويرس كثيرًا من الأمثلة ويورد أسماء كثيرة لكبار الموظفين الأقباط. كذلك لم يعرف عن حكام مصر أنهم عارضوا في تعيين أحد البطاركة بعد أن يتم انتخابه بواسطة الأساقفة. ويؤكد ساورس أيضًا أن الدين لم يفرق بين المصريين في الشعور بأنهم أبناء وطن واحد[٢٤٠].

ضرب أحمد بن طولون أمثلة كثيرة لتسامحه وحسن معاملته لأهل الذمة، فقد عهد بناء جامعه المعروف باسمه إلى مهندس مسيحي هو سعيد بن كاتب الفرغاني[٢٤١]. وأراد ابن طولون أن يقوم المسجد بدون عمد حتى لا يحتاج إلى الاستعانة بهذه العمد من الكنائس فلا يغضب الأقباط، فوضع المهندس نموذجاً للجامع بحيث لا يحتاج في بنائه سوى لعمودي القبلة. ثم عهد ابن طولون إلى نفس

---

[٢٣٩] حسن محمود: مصرر في الطولونيين، ص٢٣.

[٢٤٠] سيدة كاشف: أحمد بن طولون، ص٢١٤.

[٢٤١] سيرة ابن طولون، ص١٨١.

المهندس ببناء القناطر من جهة حي البساتين الحالي إلى القرافة الكبرى. وأقام ابن طولون (المارستان) وهي مستشفي عامة مجانية سنة ٢٥٩هـ، وسمح للجميع بالعلاج فيها على اختلاف أديانهم وأجناسهم مجاناً، فكانت أول مستشفى في مصر، وأوقف عليها كثيراً من الأوقاف، وكان ابن طولون يتردد على المستشفي كل يوم جمعة للتفتيش على الأطباء، والترفيه عن المرضى[٢٤٢]. واهتم ابن طولون بدير القصير وكان صديقاً شخصياً لأحد رهبانه، كما قدم ابن طولون المعاونات إلى المسيحيين في دمشق عندما نشب حريق قرب كنيسة العذراء.

شعر المصريون، مسلمون وذميون، بالاطمئنان والاستقرار في العصر الطولوني، واخفت ثورات المصريين تماما. وأسقط الطولونيون العرب من ديوان العطاء في مصر، ففقدوا امتيازاتهم الاقتصادية والسياسية، وأخذوا يهاجرون إلى الريف واستقروا فيه وامتزجوا بالمصريين، وتمتع الأقباط واليهود بالحرية الدينية في العصر الطولوني، فكان الطولونيون يستمعون لشاياتهم وينصفونهم، وأبدى الأقباط وخاصة الرهبان حزنهم الشديد لوفاة ابن طولون.

كما أبدى خمارويه بن أحمد بن طولون تسامحا كبيرا، وكان الطولونيون يشاركون الأقباط المصريين في أعيادهم، وكانت الأديرة مقصد المصريين على اختلاف أديانهم للتمتع بحدائقها. وكانت حفلة وفاء النيل عيدًا قوميًا يشترك فيه جميع المصريين والحكام، وكانت تنصب الموائد وتقام الولائم في القصر الطولوني.

---

[٢٤٢] خطط المقريزي جـ٢، ص٤٠٥.

في العصر الأخشيدي، كان المجتمع متماسكا متعاونًا، وعاش المسلمون والأقباط جنبًا إلى جنب في هدوء، وتمتع الذميون بالحرية الدينية واحتفلوا بأعيادهم احتفالات رائعة، وكان محمد بن طغج الأخشيد، مؤسس الدولة الأخشيدية، يشترك بنفسه في هذه الاحتفالات[٢٤٣]. وكان الأخشيد يقوم بإصلاح الكنائس. وكان لأهل الذمة محاكمهم الكنيسية الخاصة بهم، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يحتكموا إلى القضاة المسلمين إذا أرادوا.

وكان في مصر في العصر الأخشيدي آلاف من الأقباط واليهود يمارسون سائر الأعمال، فكان منهم أصحاب الضياع والأطباء والتجار. ولا نسمع في العصر الأخشيدي شيئاً عن التزام أهل الذمة القوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في اللباس والركوب.

وكثيرا ما تدخل الحكام الأخشيديون بين الطوائف المسيحية لفض النزاع والتوفيق بينها، ولم يكن في المدن أو القرى أحياء خاصة بأهل الذمة، بل كانوا يعيشون جنباً إلى جنب[٢٤٤].

لم يلتزم الحكام المسلمون بأن يدفع الذميون دينارين كجزية سنوية، بل كثيرا ما نقصت الجزية عن هذا القدر، فيقول المؤرخ (آدم متز) [٢٤٥] ظلت الجزية بوجه عام عند المقدار الذي فرضته

---

[٢٤٣] المسعودي: مروج الذهب حـ١، ص١٢.

[٢٤٤] سيدة كاشف: مصر في عصر الأخشيديين، ص٢١٤.

[٢٤٥] الحضارة الإسلامية جـ١، ص٧٩.

الشريعة، وكانت تتغير تغيرًا يسيرًا بحسب تغير العملة، وكانت الحكومة في مصر في أول القرن الثالث الهجري تكتفي بأخذ نصف دينار. ويذكر المؤرخ (ترنون) [٢٤٦] أن المسلمين أخذوا بعض الأعياد المسيحية بعين الاعتبار، وقدروا فصول السنة بها، فكان احتفال المصريين ببدء زيادة النيل وقت عيد الصليب، واحتفلوا بالنيروز وقت عيد الفصح، وغير ذلك.

وصف المسعودي[٢٤٧] احتفال الأخشيديين بعيد الغطاس، فقال أن المصريين اختلفوا به احتفالاً رائعًا، فجلس محمد بن طغج الأخشيد بقصره في جزيرة في النيل وقد أسرج حوله ألف قنديل، وأوقد المصريون المشاعل والقناديل والشموع، وزخرت القوارب بآلاف من النصارى والمسلمين، ولم يبق من كثرة الناس موضع لقدم على أسطح الدور وشواطئ النهر، ولبس الجميع أحسن ثيابهم.

وكان (ريموند الثالث) كونت طرابلس الشام يريد حث أتباعه على ترك العقيدة المسيحية والتحول إلى الإسلام ، ولكن موت هذا الكونت المفاجئ قد وقف في سبيل تنفيذ هذه الخطة[٢٤٨].

وبلغ عدد من تحول من المسيحيين إلى الإسلام – كما يقول أرنولد – خمسة وعشرين ألفا من المسيحيين في مصر فقط . ويعلق أرنولد على

---

[٢٤٦] أهل الذمة في الإسلام، ص١١٤.

[٢٤٧] مروج الذهب جـ٣، ص٤٠٦.

[٢٤٨] الدعوة إلى الإسلام ص٩٤.

ذلك بقوله :" أن دخول أي مسيحي في الإسلام ، عن اقتناع صادق كان أمرًا ممكنًا".

ورحب أهل الشام من المسيحيين بانتهاء الحروب الصليبية وعـودة الحكم الإسلامي ، فيقول المؤرخ (أرنولد) : ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي بلاد الشام قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين والحقيقـة أن أهالي فلسطين من المسيحيين، لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائيا (سنة ١٢٤٤م) رحبوا بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم.

كذلك دفع هذا الشعور نفسه ، شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية في ظل الحكم الإسلامي ، كثيرًا من مسيحي آسيا الصغرى ، في إبان هذه الفترة ذاتها ، إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة ، إذ خلصوهم مـن الحكومـة البيزنطية البغيضة ، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده ، ولكن بسبب روح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الأغريقية. وطالما دعـا الأهلـون الأتراك إلى الاستيلاء على مدنهم في آسيا الصغرى ، تخلصًا من اسـتبداد الدولة ، وكثيرا ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية[٢٤٩].

اقتباس الصليبيين الحضارة الإسلامية :

أثرت الحروب الصليبية في القارة الأوروبية ، إذ أدت إلى إضعاف النظام الإقطاعي ، وهو النظام الاجتماعي والاقتصادي والـسياسي الـذي أعطى المجتمع الأوروبي الغربي طابعه في هذا العصر. ويبدو أثر الحروب الصليبية واضحًا كذلك في الميدان الاقتصادي، إذ ساعدت تلك الحروب على

[٢٤٩]) الدعوة إلى الإسلام ص ١١٦.

أحدث تطور ملموس في النظم المالية في غرب أوروبا. هذا إلـى ازديـاد النشاط التجاري بين الشرق والغرب على عصر الحروب الصليبية أدي إلى نتائج خطيرة في غرب أوروبا منها ازدياد نفوذ المدن وقوتهـا ، واتـساع نطاق النشاط المصرفي ، وتحسين طرق التجارة وإنشاء طـرق جديـدة ، ونشاط الطرق البحرية.

على أن أهم ما تأثر به الغرب الأوروبي فـي عـصر الحـروب الصليبية كان في ميدان الحضارة نتيجـة للاتـصال بالحـضارة العربيـة الإسلامية. ذلك أن الحروب الـصليبية أتاحـت فرصًـا كثيـرة للاتـصال الحضاري بين الغرب الأوروبي والشرق العربي في الوقت الـذي كانـت أوروبا تسبح في دياجير الظلام. مما أدى إلى انتقال كثيـر مـن مظـاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى غرب أوروبا عن طريق الصليبيين[٢٥٠].

أخذ الصليبيون عن المسلمين حياة الرفاهية، وفارقوا عيش البداوة، واشتد إقبالهم على الزراعة والتجارة ، وعرفوا أن في بلاد الشرق الإسلامي صناعات أرقى من صناعاتهم ، وزراعات ناجحة ، وتجـارات رابحـة ، وأخلاقًا سمحة. وفي ذلك يقول المؤرخ (هرنشو) [٢٥١] : خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة. لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلـه الـصليبيين عنـدما رأوا المسلمين، الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم ، على حـضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانًا لا تصح معه المقارنة بينهما.

---

[٢٥٠]) أضواء جديدة على الحروب الصليبية ص ١٠٦.

[٢٥١]) علم التاريخ لمصر نشو ترجمة عبد الحميد العبادي.

لم يستفد الشرق شيئًا من قدوم الصليبيين ، بل استفاد الصليبيون الكثير ، إذ نهلوا من منابع الحضارة الإسلامية التي لا تنضب. فقال (جوستاف لوبون) [٢٥٢] : كان الشرق يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقًا في بحر من الهمجية. ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق ، ولم ينتفع الشرق منهم بشيء من الحقيقة، ولم يكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها في قلوبهم والازدراء للغربيين على مر الأجيال.

قبل الحروب الصليبية كان لا يعرف الشرق من الغربيين غير أفراد أذكياء رحلوا في التجارة، أو جاءوا فلسطين للزيارة. أما في هذه الحروب فقد عرفوا الشرق الإسلامي، فرأوا المسلمين في عقر دارهم، وتحققوا أنهم ممتازون بصفات حربية وأدبية وعلمية واجتماعية ، رأوا أمة تحررت من قيود رجال الدين ، وأنها أمة من طراز آخر.

اقتبس الصليبيون كل ما وسعته قرائحهم وهضمته عقولهم من آثار خلد بها العرب حضارتهم، وانتظمت معها شئونهم العمرانية والزراعية والعلمية والفنية والتشريعية. وبدأ المفكرون من رجال هذه الحملات الصليبية يعملون بعد عودتهم إلى بلادهم على تقليد الدول الإسلامية فيما اقتبسوه كتشكيلات الدواوين والمجالس والمصالح التي يتكون منها جهاز الحكومة، كما عملوا على تحسين أصول جباية الأموال والضرائب وتنظيم الميزانيات. كما اهتموا بتأسيس دور العلم.

---

[٢٥٢] حضارة العرب ص ٣٣٤.

كانت الحروب الصليبية وما أدت إليه من إطلاع الـصليبيين علـى الحضارة الإسلامية، هي الخطوة الأولي نحو عصر النهضة في أوروبـا ، فقال (لوبون) [٢٥٣]: أن تأثير الشرق في تمدين الغرب كان عظيمًـا جـدا بفعل الحروب الصليبية، وأن ذلك التأثير كـان فـي الفنـون والـصناعات والتجارة واضحًا، وإذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيم بـاطراد بين الغرب والشرق وإلى ما نشأ عن تحاك الصليبيين والشرقيين من النمـو في الفنون والصناعة ، تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب مـن التوحش وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخـذت جامعات أوروبا تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم.

* * * * * *

[٢٥٣]) حضارة العرب ص ٣٣٩.